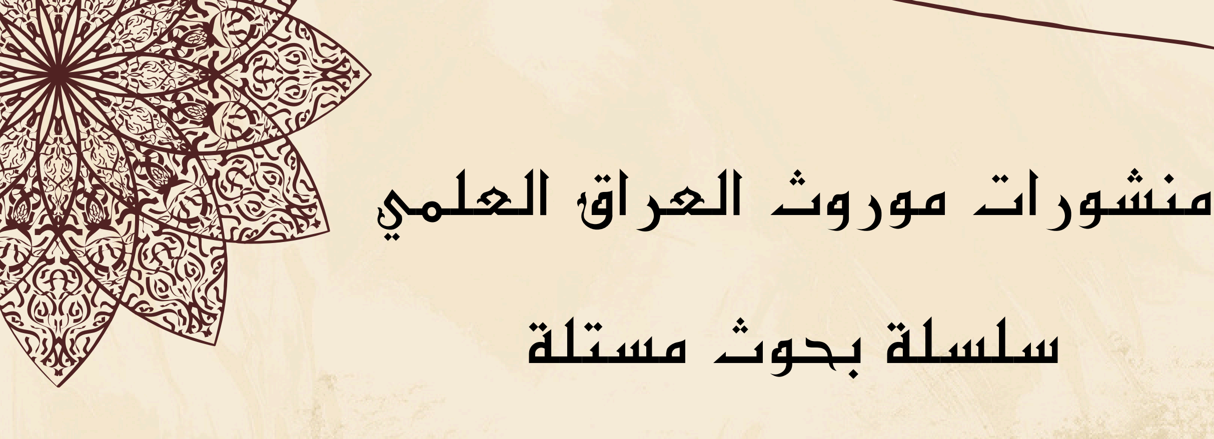


منشورات موروث العراق العلمي

سلسلة بحوث مستقلة

الإسلام
بين فرقة و وئام

الشيخ عبدالله بن شيخنا المربي
مصطفى كمال الدين النقشبندي

بحث منشور في مجلة **جمعية الهداية الإسلامية**
لسنة 1367هـ- 1948م

جمع وترتيب : عبدالقادر الجبوري



موروث العراق العلمي
IRAQ'S SCIENTIFIC HERITAGE

ربيع الاول 1446هـ



الاسلام (*)
بين فرقة و وئام

بقلم الاستاذ الشيخ عبد الله النقشبندي
مساعد رئيس التشريفات
في البلاط الملكي العامر



ما نهضة الامم والشعوب إلا بتوحد وائتلاف بين النفوس ، ووجهة وحدة يأتم حولها شتيت الأفراد ، وغاية سامية تجتمع لاستهدافها فيحصل عند اكتمال هذه العناصر اندفاع وحركة تليلهما النتيجة المرضية والغاية المتوخاة ، فالقوة الدافعة لها الى البذل والتضحية إذن هي العلة الغائية التي طمعت فى تحقيقها ، وهذه الجهة والمبادئ التي وحدتها والتي لابد من استمرار استمساكها بعراها واستدامة الايمان بها كما هي لكيلا تخار قواها وتنحل قبل بلوغ المضارب والمغاني . أما فيما عدا تلك الاصول الثابتة فلها أن تتمشى مع الملابسات وان تتلون بالوان العوارض والحادثات الزمنية حتى تتلاءم الظروف ونضالها ، وتتناسب ومقاصدها فيثمر الكفاح ثمرتها اليانعة يجنيها المكافحون بعد أن نصبوا لأجلها وناضلوا للوصول والايصال اليها ، فيكونون قد أدوا رسالتهم في حياة رقيها تتابع ونظام .

ثم — ان نوع هذه المبادئ له الأثر الأبلغ فى تثبيت اركانها وتوسيع نطاقها لعلل ثلاث اولها : التأثير النفسي والمعنوي ، والثانية : ربطها بالحياة المادية وملاءمتها مع اللوازم الجسدية التي لا بد منها للانسان طبيعة ، والاخيرة : ناحيتها العقلية وقوة حجتها ، فيختلف مبدأ عن غيره في سرعة انتشاره ودوامه بحسب قوة هذه العلل وضعفها فيه ، لذلك نرى الاديان قد ساهمت مساهمة فعالة في تكوين الحضارات البشرية بل عليها بنيت وعلت لاسيما وان العلة الاولى وهى أم العلل تتجلى فى الاديان بأجلى مظاهرها ، فانك لا تكاد تسمع بكلمة الدين إلا وتمثل امامك النفسيات والمعتقدات الروحية ، ولا ريب ان جماعة قوامها الضرر لا تتكامل الرابطة فيها تكاملا كلياً إلا بما يستولي ويسيطر على الروح سيطرة واستيلاء لا يدعان مجالا للطمع الفردي وحب الذات وغيرها من الصفات الهدامة للامم والحاجزة دون وصولها الاماني .

والدين اذا أردنا ان نرسمه قلنا : إنه نظام وضع لتنظيم الحياة الانسانية المادية والمعنوية تنظيماً شاملا لنواحيها العامة والخاصة ، ومزج بامور تتعلق بالاعتقاد والنفس ، ليكون اوقع أثراً واثبت حكماً ، فالمرؤ لا يخضع لقانون أتى به فرد لا يختلف عنه فى شيء خضوعه لقانون ينزله من خلقه وصوره فأحسن صوره ، وخلق الكون الذي هو فيه ومنه فأبدع خلقه وصنعه ، ولئلا يختلف تكوين الانسان

(*) الخطبة القيمة التي ألقاها الاستاذ في الحفلة الكبرى التي أقامتها جمعية الهداية الاسلامية في قاعة الملك فيصل الثاني بمناسبة الذكرى المباركة .

في حياته بالانغماس في المادة فيهوي الى الخراب والدمار — كما نرى في المانيا واوربا وغيرها من انحاء العالم بشتى الاشكال وكل ذلك في عصر الذرة والنور — فان الانسان لا يستقيم له الأمر إلا إذا أخذ من كل من الجانبين بقسطه فاتقى الله ولم ينس نصيبه من الدنيا .

وتجلو لنا هذه الحقيقة اذا نظرنا الى أفراد من هذا المجموع ، تجلو لنا بحكمنا عليهم في معاشهم ، ننظر الى زاهد متقشف في صومعة قدت من صخور جبل فنقول : ليس الكسل والتغافل والجهل بالدنيا والتوحش عن الناس حياة نافعة ، ثم نحول بصرنا الى سفيه يقضي ليله ونهاره وشبابه الغض بين حانة يحتسي منها الخمر ، وركن يفجر فيها ويقامر ، وطرق يقع على اوحالها لأن اعصابه القوية قد ارتخت باسرافه في خمرته واستغنائه عن عقله فنقول له : الويل كل الويل ، ليس التبذير والاسراف وانهاك الجسم بالمسكر وقتل الوقت الثمين من العمر بالعربدة وافقاد الحب والشرف حياة نافعة ، فلماذا لم تكن حياتهما حياة نافعة ؟ لأن الأول انهمك في مقتضيات الروح واهمل مقتضيات الجسم ، والثاني بعكسه فقد كل منهما توازنه في حياته — والأول أهون خساراً فانه ان خسر المادة فقد ربح المعنى وان خاب في الدنيا فقد فاز في العقبى أما الثاني فقد خسرهما جميعاً ، فاللذة الوقتية تعقبها آلام الضمير والندم ، والوقوع في وادي الهوى والمنكر ليس ما هو شر منه — .

فالغرض من الدين هو اسعاد البشر ، ولأجل ذلك تتابعت الاديان تقرر وتقرر تنسخ وتجدد من الأحكام والاصول لتتدرج بالبشرية وحضاراتها الى سنا الكمال والنضوج ، تباعاً للخطة التي خطتها السماء للارض وكما أرادتها ، ومن يحط بهذه الحقيقة يدرك ان الأديان لم تأت ليضارب بعضها البعض ، وانها سلسلة من النظم منتظمة اقيم كل حلقة منها على سوالفها ، وانها مدارج الرقي البشري ، واذا كان ذلك روح الأديان فلا يمكن الرضوخ لنصوص دينية تعزى الى بعض الاديان مفادها ابطال غيره من السماويات ، ويجب الاذعان بانها ليست نصوصاً دينية حقيقة وانها انما ابدعت واصبحت معتقداً بها لدى فئة من الناس لعدم صيانة النصوص وبقاءها كما هي ، ولاختفاء كثير منها في ظلمات التاريخ . وان دين الاسلام لاعظم دليل على ذلك ، فانه احيى من جملة ما احيى التاريخ وبين للناس اهميته ، واحدث طريقة الرواية والنقل على اكمل وجه يمكن أن يكون صحة وحفظاً وتجدون في هذه النصوص الاعتراف بالاديان وايجاب احترامها والايمان بالانبياء جميعهم ، وانهم كانوا رسل اصلاح وخير ، وتجدون الرسول ﷺ يعلن انهم اخوانه أتوا من قبله ليرشدوا الناس الى ما فيه سلامة الآخرة والاولى .

نعم ، لقد تتابعت الأديان وبعث الرسل ، وكانت بعثة اكثرهم مقصورة على طوائف ومخصوصة ببقاع محدودة وبشر كل في حدود عمله واصلح الى ان بزغت شمس الاسلام على آفاق الغبراء فأضاءت مشارق الارض ومغاربها ، فأتى ديناً يعالج المشاكل الاجتماعية ، ويفتح للعقل أبواب الفكر لينفذ الى لباب الحياة ، ولا يترك الى الوهم والشك سبيلا ، ونظاماً عالمياً لا يقتصر على قبيلة دون قبيلة ولا

شعب دون شعب ولا بلد دون سواه ، صالحاً للانسانية جمعاء عدها أسرة واحدة لا ينفصل جزءها عن كلها ولا يميز بعضها عن بعض سواد وبياض ولا تغاير في اعراض الدم وكراته ، ولا اختلاف في شكل الجماجم واحجامها . دين أكمله « الله تعالى » وارتضاه فسما بالانسان دفعة واحدة من حضيض الجهل والتأخر الى اوج العلم والتقدم، تخلدت آثاره خلود الأبد ، لم تدع شأواً لمستبق ولا مرقى لمستنم ، وأخذت جوامع كلمه وحكمه بمجامع الأفئدة والانظار حتى لم تدع مجالا لأن يلحق عظمته نكران وإقلال ، فقد مجده الغرب تمجيد مشرقه وكتب عن عاهله علماء الغرب مثلما كتب علماء الشرق . فالمستشرق الفرنسي الكبير « جان بروا » في الفصل الخامس من كتابه « محمد نابليون السماء » يقول : « والنبي لم يرد بتأسيس دولة الاسلام الاستمتاع بالسلطان وبهجة الحياة وزينتها والغلبة والقهر والعدوان ، وانما يريد مملكة انسانية يعبد فيها الله وحده مع الاحتفاظ بحرية الرأي والعقيدة ولا يشرك به شيء من أشياء الكائنات المادية والمعنوية ، وتتساوى فيها الحقوق بين كل الأمم والشعوب ، وتحفظ الحريات ، ويتوفر طيب العيش للجميع » وفي عين الفصل يقول « والاسلام في تعاليمه جد رفيق ، ويسير لا عسر فيه ، وليس فيه ما يجافي العقل وينابذ العلم والمنطق . فرض لتمكين الاجتماع والتعارف الصلوات الخمس ، ولم يختر للنداء الى هذا الاجتماع غير صوت الانسان الندي الذي لا يضاهيه صوت معازف وعذب ، وفرض الزكاة ترفيهاً لعيش الطبقة الفقيرة وإسعاداً لها كما فرض الصوم تربية للارادة الانسانية وتعويداً لها ليدخل في إمكانها كبت الشهوات والقضاء على الرغبات الضارة » هذا ماقاله « جان بروا » عن الاسلام .

ولقد أصبح المسلمون — ايها السادة — بفضل دينهم هذا أعظم قوة على الأرض تمحق الحق وتبطل الباطل ، وبنوا حضارة شهد بمآثرها التأريخ ، وملؤا ارجاء البسيطة علماً وحكمة وعدلا ، واقاموا دولا كان كل عاصمة من عواصمها بغداداً قال فيها امير الشعراء :

« دار الشرائع « روما » كلما ذكرت

« دار السلام » لها ألقت يد السلم »

ولكن مالبث المسلمون ان تهاونوا في تطبيق مبادىء دينهم ومضوا في غرور الخلاف المذهبي فانقسموا فرقاً وشيعاً ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد ، لقد تناسوا أوامر الوحدة والائتلاف وان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ونادوا بالعنصرية ولم تقم لهم العنصرية شأناً ولا نظمت لهم حياة فهرعوا الى مبادىء اجنبية خداعة فتفرقوا ايادي سبأ ، وزالت شوكتهم وعزتهم وحلت بهم المصائب والكوارث فتصفح اخبارهم : —

« لتريك كيف اذا استنمت دولة

اعمى الغرور رجالها لتدولا »

وما قضية فلسطين — أيها السادة — إلا كارثة من هذه الكوارث ومصيبة من مصائب احلتها بنا رغبتنا عن الاسلام لكنها ليست اول عدوان يهودي يجابه المسلمين فقد سبقه عدوان « المدينة » و « وخيبر » فلنقارن إذن بين قضيتي خيبر وفلسطين من نواحيها السياسية والحربية

والاقتصادية لندرك سر نجاح المسلمين بتلك السرعة الخاطفة في خيبر ومكوثهم اعواماً بين متى ولعل امام « تل أبيب » ؟!

كانت خيبر مصدراً اقتصادياً عظيماً تسيطر عليه اليهود تملك اموالا وعدداً ، وافرة الثراء ، واسعة اليد ، وكان بطن من بطونها يصنع الاسلحة من سيوف ورماح فيحسن صنعها ، وقد بذلت اموالا كثيرة لاثارة الجزيرة العربية وتمكنت منها ، ودولتا « الروم وفارس » العظيمتان كانتا تشايعان اعمالها كرهاً للاسلام وحباً في القضاء عليه من مهده ، وكان المسلمون مهاجرين وانصاراً ينقصهم العدد والعدد ولا يعرفون للاسلحة صنعاً ، كانوا فئة قليلة ثارت في وجههم قبائل الجزيرة وأحدق بهم خطر اليهود ولم تكن دولتهم الفتية في عداد الدول ولا واصلة بعد الى درجة من القوة والسلطان يتمكن معها الرسول ﷺ أن يبعث بسفرائه الى كسرى وهرقل ، وكان من ضعفهم السياسي ان عاهدوا « قريشاً » مع كل ما قاسوه منهم ومع ما بينهما من ثارات . وان يمسح الرسول ﷺ كلمة « رسول الله » من صك المعاهدة لأن سهيل بن عمرو أبى كتبها ، وان يعدوا هذه المعاهدة انتصاراً لأنها جعلتهم في عداد هذه القبيلة قوة واثراً . مع كل ذلك لم يحجم المسلمون بعد ان أمنوا قريشاً بالمعاهدة عن الزحف على خيبر الزاخرة بالاسلحة والمؤن واعداء متحصنين بأحصن الحصون ، فحاصروا اليهود أياماً نفدت معها ذخائرهم ، والحصن الشامخ لا يتصدع حتى كاد اليأس في الليلة الاخيرة يدب الى نفوسهم لولا أن قوة الايمان اذكت فيها نار الغيرة والحماسة . ولما انتهى الرسول ﷺ من صلاة فجر تلك الليلة مدت اليه الاعناق واحدقت فيه الابصار لتستلهم من سيما النبوة ايماناً وتستجد قوى ولترى ما سيفعل في هذا اليوم ، فاما انتصاراً بعد واما فناء ! أعطى الرسول ﷺ رايته علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وبشره بالفتح ، ولم تكد تتراقص الوان الغروب على حصن « ابن معاذ » حتى اخترقت ابوابه خيول المجاهدين تطأ حوافرها اشلاء « مرحب » مزقها سيف « علي » الفاتح . ورجعت صخوره نغمات التكبير للنصر المبين .

انتصر المسلمون انتصارهم العظيم على ما كانوا عليه من قلة الانفس والعتاد ، وقضوا على اليهود سياسياً ، لا لشيء الا أنهم لم يكونوا عرباً وعجماً ولا سنة وشيعة ولا حنابلة وأحنافاً ، انما كانوا جنوداً مجندة تجمعهم « لا إله إلا الله » وتقودهم عبقرية « محمد » ودهاؤه ..

وفي فلسطين كثمة من الصهاينة لفظتها اوربا وايدها بعض الدول العظمى لتغتصب من المسلمين بقعة مقدسة لها مكانتها في صحائف الاعجاز . لكن المسلمين ليسو ضعافاً ، عددهم مئات الملايين ، ولهم ثروات واموال ، واسلحة وجيوش ، وحكومات تعترف بها الدول وتشترك في المؤتمرات العالمية وتمثل تمثيلا سياسياً ودبلوماسياً . فلا ينقصهم ، إلا التآزر والوحدة والأخذ بتلك المبادىء السامية التي انبنت عليها دولتهم الاولى وتعالت بها حضارتهم السالفة ، وإلا الرجوع الى تعاليم « محمد ﷺ » صاحب هذه الذكرى المباركة .

عبدالله النقشبندي